ذكريات طفولة فلسطينية

رمزي ريحان*

ولدت في الناصرة سنة ١٩٣٩، وفي صيف سنة ١٩٤٣ انتقلنا إلى حيفا. تعرفت على حيفا تدريجياً : ساحة الحناطير، شارع الملوك، شواطئ السباحة في العزيزية وبات جاليم (أي بنت الأمواج في العبرية) والكرمل والمقام البهائي الرائع. بدأت أسمع بعض الناس يتكلمون بلغة لم أفهمها فهي ليست عربية أو إنجليزية وهكذا عرفت أن هناك غرباء بيننا. كانت علاقاتنا مع الغرباء تقتصر على الضروري الذي لا يمكن تجنبه.

كانت الحرب العالمية الثانية مستمرة ففرضت حكومة الانتداب البريطاني تقنين المؤن، لذلك كنا نذهب بانتظام في المواعيد المقررة للحصول على حصتنا من المواد الغذائية، واذكر منها السكر الأسمر وزيت (كوكوزين) للطبيخ، وقد علق اسمه الرنان في ذاكرتي. كما كانت المدارس توزع البيض بأعداد محدّدة على أهالي التلاميذ لتغذيتهم.

لم يكن تقنين المؤن التأثير الوحيد للحرب. كانت صفارات الإنذار من الغارات الجوية تُطلق في بعض الأحيان فأحتمي في حضن جدتي، لكنني لا أذكر حدوث أي هجوم على حيفا، كما كانت هناك فوق البحر بالونات كبيرة تحلّق في السماء باستمرار للحماية من هجوم الطائرات الحربية.

مع انتهاء الحرب العالمية الثانية اشتدّ الصراع بين الفلسطينيين والمهاجرين اليهود. كان الجيش البريطاني يفرض منع التجول في الليل بكثرة، وبعد إحدى ليالي منع التجول ذهبنا إلى الشاطئ لنتفرج على سفينة كانت تقل مهاجرين وضلّت مسارها فرست في الرمال خارج الميناء. وكانت أصوات العيارات النارية تسمع كثيرا في الليل كما حدثت عدة تفجيرات لمباني الحكومة. أما أضخم حدث فكان إحراق محطة تكرير البترول التابعة لشركة البترول العراقية في خليج حيفا، حدث ذلك في بداية خريف سنة ١٩٤٧ وأدى إلى حريق هائل ودخان غطىّ سماء المدينة بأكملها. وبعد أسبوعين من هذا الحريق المستمر قرر أصحاب القرار في العائلة بأن حيفا لم تعد آمنة لطفل في الثامنة من عمره وبناءً عليه تم إرسالي إلى بيت خالي في نابلس.

نابلس أهدأ كثيراً من حيفا، خرجت بعض المظاهرات الصغيرة الصامتة. وفي صيف ١٩٤٨ أغارت الطائرات المعادية على نابلس في الليل عدة مرات. كنا نحن الأطفال والنساء نختبئ في مخزن أسفل البيت بينما يخرج الرجال لإطلاق النار على الطائرات من مسدساتهم الصغيرة عبثاً. كان بيتنا قرب حي السامريين فراقبنا السامريين الذين لجئوا من يافا إلى أقربائهم في نابلس. وذات صباح مرّ علينا صديقٌ لخالي وقال لنا «قتلوا كندره بوت» وكان هذا هو الاسم المتداول للمبعوث الدولي كونت برنادوت والذي اغتالته عصابة صهيونية سنة ١٩٤٨.

كانت بقية الأسرة قد هاجرت من حيفا إلى نابلس في شهر آذار سنة ١٩٤٨ وذلك قبل سقوط حيفا بأيام. فقدنا كل أملاكنا ومصادر الدخل فكان على الجميع محاولة إيجاد عمل مهما كان نوعه. بدأت إحدى خالاتي، وهي في الأصل معلمة، تعمل في مقر لتوزيع الحليب في نابلس أقامه الصليب الأحمر. كانوا يذيبون دقيق الحليب في الماء ويغلونه في أوعية ضخمة على ثلاثة «بريموسات»، وكانت الأمهات تتدافع للحصول على كمية من الحليب لتغذية أطفالهن. أذكر التزاحم والصراخ وبخار الحليب الساخن يختلط برائحة العرق المتصبب من الناس في حرارة لا تطاق.

كان بيتنا بجوار مدرسة تم إسكان عائلات لاجئة من يافا واللد وغيرها في غرفها. ولضيق تلك الغرف كان سكانها يسهرون في بيتنا يتناقلون آخر الأنباء والآراء المختلفة حول ما سيحدث، كما كانوا يغنون أغاني الهجرة تصف الحال الذي آلوا إليه. أذكر من تلك الأغاني المقطع التالي:–

مين العايش	غير الارتيستات
شبابنا عدمت	كسدت البنات
شُرّم بُرّم	عقلك يبرم
مين بيدري	مين بيعلم
شو النتيجه	غير الله!

ليس أدباً رفيعاً لكنه انبثق من الأعماق. كان الجميع، نساء ورجال، يغنون بحرارة وانفعال متخطين التناقض بين استجداء اليأس ونشوة الانتصار. فقد امتزج في هؤلاء الناس الأمل بأن «حل القضية» سيبزغ فجر الغد والخوف من انه سيختفي وراء الأفق.

في خريف ١٩٤٨ أرسلنا نحن الأطفال إلى بيرزيت للدراسة في مدرستها المعروفة، وجاءت أمي معنا لتعتني بنا. كنا نصطف صباح كل يوم في ساحة المدرسة ونغني أغانٍ وطنية. كانت تلك فترة فوضى: قدوم اللاجئين من منطقة اللد والرملة، عبد القادر الحسيني وقوات من الجيش العراقي

---

* مستشار رئيس جامعة بيرزيت، ومن مؤسسي مجلس التعليم العالي. له بحوث ودراسات في التربية والإجتماع.

والصليب الأحمر. انتشرت الأوبئة وفي يوم واحد أعطيت اللقاح ضد مرض الجدري ثلاث مرات. لحسن الحظ، أو لرداءة الأمصال، لم أصب بأي أذى من هذه الجرعات الزائدة عن المطلوب.

كانت أمي تأخذنا في نزهات إلى منطقة برية خضراء اسمها «السقي» حيث كنا نلتقط الزعتر وثم نتلذذ بالعشاء على الزعتر الطازج المنعش. مرت سنوات كثيرة قبل أن أسرّت أمي لي أن الغاية من النزهات لم تكن التنزه بل التقاط الزعتر لأنه لم يكن لدينا في البيت ما يكفي من الطعام.

بعد فترة وجدت أمي عملاً، وهي ممرضة، في عيادة للطفولة والأمومة في مخيم عسكر للاجئين قرب نابلس وكان تابعاً للصليب الأحمر. كانت العيادة خيمة كبيرة أنشئت على التراب. كانت الخيمة تعج بالغبار في الصيف وتمتلئ بالماء في الشتاء، وأطاحت الرياح بالخيمة عدة مرات. وبعد حوالي سنة انتقلت العيادة إلى مبنى صغير في نابلس وأصبحت مستشفى أطفال تابع لوكالة غوث اللاجئين. كانت أمي رئيسة التمريض في المستشفى. علّقت أمي لوحة على الحائط تبين أعداد الأطفال الذين أُدخلوا المستشفى كل شهر وكذلك عدد المغادرين وعدد الوفيات. كان الأطفال في حالة لا يمكن تصورها من الجوع والضعف وأضلاعهم تبرز من صدورهم الهزيلة. كانت نسبة الوفيات عالية جداً. وببراءة وقسوة طفل في العاشرة كنت أراقب الأطفال الذين اقتربوا من نهاية الطريق، كانوا يتلوون من الألم ويحركون أطرافهم بصعوبة بالغة ويفتحون أفواههم للصراخ فلا يخرج إلا أنين خافت. ثم صمت وسكون. هكذا تعرفت على الموت المتلاحق.

في سنة ١٩٤٩ افتتح خالي، وهو صيدلي، صيدلية في رام الله فانتقلنا إلى رام الله والتحقنا بمدرسة الفرندز هناك. كان بيتنا قريباً من بيت كان الملك عبد الله يبيت فيه أحيانا (وهو الآن مقر مجلس أمناء جامعة بيرزيت) فيتجمهر الناس حول البيت ونركض بسرعة إلى هناك لمشاهدة الملك. وذات مرة رأينا الناس متجمهرين عند ذلك البيت فذهبنا بسرعة لمشاهدة الملك لكن لم يكن الملك هناك بل رأينا رجلاً ملقى على الأرض وفهمنا من الناس انه أغمي عليه من الجوع.

كان شتاء ١٩٤٩–١٩٥٠ قاسياً ولا يزال الذين كانوا في رام الله خلال ذلك الموسم يتذكرون «الثلجة الكبيرة» والتي ألقت مترين من الثلج على جوانب شارع الإذاعة. ذات يوم كنت ذاهباً إلى المدرسة في الثلج لابساً كل ما أمكن من اللباس والنعال، فرأيت فتاة في عمري تمشي أمامي مع أخ أصغر منها بقليل. فجأة توقفت البنت وصرخت «آخ رجلي توجعني»، رفعت رجلها لتدلك قدمها من البرد فإذ بها تمشي على الثلج حافية. لن أنسى.

كيف أرى طفولتي الآن؟ طبعاً لم أكن استوعب في ذلك الزمن جسامة الأحداث التي كانت تجري حولي، بعضها شاهدته وسمعته من قريب وبعضها عرفته من بعيد. لكن حياة طفل واحد أوسع من مجلدات التاريخ.

هناك ذكريات سعيدة لا أزال احتضنها: في الناصرة كنت كل صباح أنتظر الحلاّبة التي كانت تأتينا بالحليب الطازج وأتذوق فاكهة شجرة «قراصيا» خلف البيت. في حيفا كنا نذهب إلى الشواطئ في الصيف وكانت البواخر الراسية في الميناء تطلق صفاراتها عند انتصاف ليلة رأس السنة. كنا نذهب إلى الكرمل لنشتري بوظة ليس لها مثيل في العالم أجمع كان يصنعها رجل شامي بيده.

ذهبنا بالقطار إلى عكا لنتفقد مزرعتنا في المنشية، ذهبنا إلى يافا وبقينا عند أصدقاء لبضعة أيام، وفي الشتاء ذهبنا إلى طبريا ومرة إلى الحمّه، وفي صيف ١٩٤٤ أو ١٩٤٥ قضينا حوالي الشهر في رام الله وكانت في ذلك الوقت قرية هادئة وجميلة بكثرة أشجارها. وأهم من كل ذلك كانت الأمسيات العائلية الهادئة تمثل قمة الدفء والسعادة. شاهدت وسمعت وأحسست كل ما حولي. هذه هي جذور من أنا الآن. تعلمت من الطفولة الكثير الكثير قبل أن تعلمني المدارس والجامعات.

في صيف سنة ١٩٧٠ حصلت على إذن «لمّ الشمل» من سلطات الاحتلال الإسرائيلي في نابلس وذلك بعد سنوات طويلة من الاغتراب. قررت أن استعيد طفولتي، فذهبت إلى حيفا وتجولت فيها إلى أن وجدت نفسي أمام البناية التي كنا نسكن فيها وهي بناية من خمسة طوابق وكنا نقطن في الطابق الخامس. نظرت إلى البناية من الرصيف المقابل، كل شيء كان كما أذكره، شرفتي المحببة التي كنت أقف أتفرج منها على البحر والبواخر في الميناء. ثم وقفت أمام مدخل البناية، لم يتغير أي شيء فيه لكنه بدا غريباً لأن غرباء يسكنونه الآن. لم أدخل.

ثم ذهبت إلى الناصرة وتجولت فيها كثيراً حتى وجدت البيت الذي كنا نستأجر شقة فيه من أصحابه العرب. وجدت صاحبة البيت وقد شاخت، عرّفتها على نفسي فتذكرتني ورحبت بي بحرارة. أدخلتني إلى البيت وأشارت إلى صورة طفل صغير معلقة على الحائط وقالت « ذكراك لم تفارقنا أبداً! انظر إلى صورتك هذه، بقيت في مكانها حتى الآن».

أتساءل: هل حقاً تركت الناصرة وحيفا أم هل ظلت ذكراي تعانق ترابهما وذكرياتي تحلق في سمائهما؟